متى سيستريح التراب؟

من اللحظات التي أحبها لحظات استعداد العاملين في المتجار لإغلاق المحل مساءً حيث يبدأون في كنس الأرض وترتيب حاجياتهم ومسح أرففهم وأبوابهم الزجاجية، ووضع اللافتات جانباً.. هذه الطقوس الأخيرة التي أمرّ فأراها عبر زجاج المتجار تشعرني دائماً بنوعٍ من الراحة والإسترخاء، وتغريني بالإسراع إلى المنزل لكي أسترخي أنا أيضاً..

الإسترخاء.. شيء بسيط نحتاجه يومياً نحن بني البشر، وتحتاجه القطط والعصافير في أعشاشها والأسماك في أعماقها وكل شيءٍ حيّ تقريباً..

الأشجار تستكين عندما يأتي المساء، وبعضها يغلق أوراقه ويتنفس.. الكائنات الأخرى كلها تعرف كيف تتمطّى وتسترخي.. أما نحن فنضطر إلى بعض برامج البرمجة العصبية التي تحاول حملنا على التنفس العميق ثم الإسترخاء قبل أن ننام، قد يكون لهذه البرامج مفعول في بدايات استخدامها، غير أن أدمغتنا تتمرد عليها بعد

مدةٍ فتصبح بلا مفعول.. هذه الأدمغة البشرية التي عندما نصل إلى مسترخانا بأجسادنا المنهكة ونندسّ تحت ألحفتنا الدافئة تظل تتجول في كل مكان.. تسافر هنا وهناك.. توقُّفها لا يتم كما تتوقف السيارات المتطورة بل يتم ببطءٍ شديد كمحركات البواخر القديمة الطراز، لذا فهل تواصل المسير في الأقاصي بأسئلتها، وتساؤلاتها..

هل تسترخي كل الأشياء يا ترى؟ لا بد أن السيارات تفعل، فعندما تمر ببعضها وتراها مصطفّة في مواقفها الضعيفة الإضاءة تكاد تسمع أنفاسها المتباطئة وتثاؤبها..

والأرض، هل تحتاج الأرض يا ترى إلى الإسترخاء؟ هناك حتماً بلادٌ تحتاج الإسترخاء.. متى يا ترى سيكتب لها ذلك؟ متى سيستريح ترابها ويسكن، متى ستشفى حروقها؟ متى ستُترك الأشجار لتتحسس جروحها وتُنضِج ثمرها بهدوء؟ متى ستُترك الجدران لوقوفها الأسطوريّ؟ متى سيكفّ هذا الصبيّ الشرير، الذي اسمه الإنسان، عن ظلم الأرض؟ متى سيتركها تستريح من سلاحه الشيطاني ونيرانه؟

ألا سحقاً لكل من ينتهك حرمة الكون.. ويتسلط بغير وجه حق على خلق الله، وأرضه وسمائه..

نشر بالملحق الثقافي لجريدة الشرق القطرية بتاريخ ٢٠١٤/١١/٣٠م